المحاضرة الأولى والثّانية:

1- النّحو العربيّ/ النّشأة والتّقعيد

2- التّصنيف في النّحو –الموّلفات الأولى

لا غَرْوَ أَنْ يَجِدَ الطّالبُ اليومَ – وهو يَبحَثُ بَيْنَ صَحائفِ الكتُبِ وصفحاتِها في نشأةِ النّحوِ– اختِلافَ الرّواياتِ وتَبايُنِها فيمَن لَهُ الأسبقيّةُ لِهذا العلْمِ، حيثُ تَتَّفِقُ أَغلَبُها على أنّ (أبا الأسود الدّؤلي المتوفَّى سنة 69 هـ) هُوَ مَنْ وَضعَ النّحوَ، ولَمْ يَكدْ هذا الأخيرُ يَبدأُ وَضْعَه، ويَكتُبُ مِنه ما كَتبَ، ثُمَّ يُعلِّمُ النّاسَ نَبأهُ حَتّى أَسرَعَ إليه نَفرٌ مِنَ الطُّلّاب يسْمَعون منه ويَتَتَلمَذونَ له، ثُمَّ يُقبِل عَلَيْهِم مِنْ بَعْدُ طُلّابٌ آخَرُونَ يَصنعُون صَنِيعَهم هم مع (أبي الأسود).

وهكذَا تَمضِي المَسيرةُ فوجًا بَعدَ فَوْجٍ، كُلّمَا مَضَى فَوجٌ خَلَفَهُ آخرُ، على مَدَى نحوِ أربعةَ عشرَ قرنًا. وما مِنهم إلّا صانِعٌ للنّحو صَنيعًا، أو مُضيفٌ إليه جَديدًا. كُلٌّ على مقدار ما يُتَاحُ له، ويَفتَحُ الله به عليه.

وكان (عبدُ اللهِ بن أبي إسحاقَ الحضرمي المتوفَّى سنة: سبعَ عشرةَ ومائة 117 للهجرة) أوّلَ مَنْ ذَكَرَ النّاسُ له عمَلًا في النّحو بَعْدَ أَبِي الْأَسودِ فَقالُوا: "إنّه فرَغَ النّحو وقاسَهُ، وأَملَى كِتابًا في الهمز"[1]، والهَمزُ حَقيقٌ أن يُؤلَّفَ فيه كتابٌ، فإنّ له في القراءات أحوالًا يتنقّل بينها، كما للاسمِ المُعرَب أَحوالٌ في الكلامِ يَتنَقّلُ بينها أيضًا.

1 – يُنظَرُ: عبد الواحد بن عليّ أبو الطّيب، مراتب النّحويين، بيروت: 2009، المكتبة العصريّة.

وقد مَكَّنت له حفاوتُه بالهمزِ والتّأليف فيه أن يَفوزَ به على (أبي عَمرٍو ابنِ العلاء المتوفَّى سنة أربعٍ وخمسِينَ ومائة 154 للهجرة) في المناظرة الّتي دعاهما إليها (بلال بن أبي بردة)، إبانَ ولايَتهِ على البصرةِ[1]. وإذَن يُمكِنُ أن يُقالَ: إنَّ (عبدَ الله بين أبي إسحاقَ) هو أَوّلُ مَنْ أَلَّفَ كتابًا في الصّرفِ، وكانت وَفاتُه سنة: سبعَ عشرَةَ ومائة للهجرة (117هـ).

وألّفَ (عيسى بنُ عُمَرَ الثّقفي المتوفَّى سنة تسعٍ وأربعين ومائة 149 للهجرة) كتابيْنِ في النّحوِ، نوَّهَ بهما (الخليل المتوفّى سنة سبعين ومائة 170 للهجرة) في بَيتَيْنِ ردّدتهما كتبُ التّراجمِ المختصّة، وهما:

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُـلُّه *** غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَر

ذَاكَ إكْمَالٌ، وَهَذَا جَامِعٌ *** وَهُمَـا لِلنَّـاسِ شَـمْسٌ وَقَـمَر

واسمُ الكتابِ الأوّل يدلُّ على أنّه أكملُ نقصًا، واسمُ الأخرِ يدلُّ على أنّه جمعٌ متفرّقًا. وفي هذه إشارة إلى أنّ النّحوَ لعهد (عيسى بن عمر) كان قد قَطَعَ في سَبيل النّموّ شَوطًا بعيدًا. وكانت وفاةُ (عيسى بن عمر) سَنةَ تِسْعٍ وأَربَعِين ومائة لِلهِجرة (149 هـ).

وبقيَ الكتابان أو أحدهما إلى القرن الثّالِث؛ فَيَذْكُرُ (المبرّدُ المتوفَّى سنة خمسٍ وثمانينَ ومائتيْن 285 للهجرة) أنّه قَرَأَ أَوراقًا مِنْ أحدِهِمَا، فَكَانَ كالإشارةِ إلى الْأُصُولِ[2].

---

1 – يُنْظَرُ: الحسن بن عبد الله سيرافي، أخبار النحويين والبصريّين.

2– أبو بكر الزبيدي، طبقات النّحويّين، ص37.

ثُمّ جَاءَ كِتابُ (سِيبَوَيْهِ الْمُتوفَّى سنة 180 هـ)، فبَهَرَ النّاسَ واسْتَأثَرَ بإعجابهم، فَقَدْ رَأَوْا منه قَصْرًا منيفا، شامخَ الْأَعالِي، لا يَسَعُ النّاظر إليه، ولا الدّاخل فيه، إلّا أَنْ يُسبّحَ اللهَ الّذي خلقَ (الخَلِيلَ)، وجَعَلَهُ خَازِنَ ذَخائرِهِ، وخَلَقَ (سيبويْهِ)، وجَعَلَهُ مُهندِسَ بنْيَتِهِ.

إنّه اللّغة في نَحوِها وصرفِها وأصواتها، بل في أصولِ بلاغتها أيْضًا، وإنّه النّحوُ في أحكامِهِ وقضاياه، وفي أقيِسَتِهِ وعِلَلِه، وفي أصولِه وفروعه، وفي مناهجه وشواهده. لم يدعْ من ذلك للّذين مِن بعده إلّا يسيرًا لا يحسب لَهُ حساب. والّذين قالوا: "إنّه قرآنُ النّحوِ لم يُبْعدوا ولم يُسرِفوا. لقد ملأ الدّنيا علمًا ونفخ في النّاس روحًا من البحث ما كانت لولاه لتكون.

وما نُريدُ أن نَبخسَ فضلَ السّابقينَ مِنْ سَلَفِ (سيبويه)، فَقَدْ أَمَدّهُ كثيرٌ مِنهم بِقدرٍ عظيمٍ مِنَ الآراء والأحكامِ، ولا سِيما (يونُس بنُ حبِيب المتوفَّى سنة اثنتَيْنِ وثمانينَ ومائة 182 للهجرة)، و(الأخفشُ الأكبر المتوفَّى سنة سَبْعٍ وسَبعينَ ومائة 177 للهجرة)، (وأبو عَمرو بن العلاء)، فكان لَهُمْ بِذلكَ جُهدٌ مَشكُورٌ في صُنعِ الكِتابِ. وفي ظُهورِهِ فَجأةً شاهدُ صِدقٍ على مَبلغِ الجدِّ والإخلاص في دراسة النّحو وتنمية مادّته؛ فليس بين ظهوره وابتداء

وضعه سوى قرنٍ واحد، يزيد قليلًا. ولكنّها الهِمَّةُ الكبرى والمطلب الجليل يصنعان العجَبَ العجاب.

ولمْ يَكُفَّ النّحاةُ بعد (سيبويْهِ)، ولافترتْ هِمّتُهم عن التّأليف في النّحو، فألّفوا فيما يخطُرُ منه بالبال وما لا يَخطُر، لا تكاد تَصْرِفُهم عنه الفِتَنُ واضطراب الأحوال، فكان من ذلك ثروةً هائلَةً من كتبه، تتخالف موضوعًا وحجمًا، ما بين مبسوطٍ ووسيطٍ ووجيزٍ، أكثرها في النّحو والصّرفِ معًا، وبعضها في النّحو خاصّةً أو الصّرف خاصّةً.

وتنوّعت عِباراتُ الكتبِ، فواضِحةٌ وغامضةٌ، ومُجمَلةٌ ومُفَصَّلة وقاصِدةٌ ومستطردة، يَشُوبُها قَلِيلٌ أو كَثيرٌ مِنْ تَجرِيدِ الفلسفةِ وصرامةِ المنطِقِ. وما كان مُمكِنًا أن يَبرأ النّحوُ مِنهما، فقدْ صارتْ لَهُمَا الغلبةُ على مَناهِجِ الدّرسِ وَمَذاهِبِ التّفكيرِ أيامَ ازدِهارِ الحياة العلميّة. فكان مِن أثرهما أن غمُضتِ العبارةُ قليلًا أو كثيرا. خاصّة في كتب المشرق، وبعض كتب العصور الأخيرة.

على أنّ لِغُمُوضِ العِباراتِ أسبابًا أخرى، كإجداب القريحَةِ. وضَعْفِ مَلَكَةِ البَيانِ. وقد كان (المازنى المُتوفّى سنةَ سَبعٍ وأَربَعينَ ومائتيْنِ 247 للهجرة) مِمَن يَصعُب الفهمُ عنهم[1]، ومن العجيب أن يتعمّدَ بعضُ النّحويّينَ الغموضَ، بل أن يكون منهم مَنْ يَعِيبُ الوضوحَ. ويرى أنّ الأخذَ به يُزرى بالنّحو، فقد قيل للأخفش: لِمَ لَا تَجعَلُ كُتُبَكَ مَفْهُومَةً؟ فقال: "أَنَا رَجُلٌ لمْ أَضَعْ كُتُبِي هَذِهِ لله. وَلَيْسَتْ هِيَ مِنْ كُتُبِ الدِّينِ. وَلَوْ وَضَعْتُهَا هَذَا الْوَضْعَ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ قَلَّتْ حَاجَتُهُمْ إِلَيَّ فِيهَا. وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَتِي الْمَنَالَةَ"[2].

---

1 – يُنظَرُ: عبد الواحد بن عليّ أبو الطّيب، مراتب النّحويين، بيروت: 2009، المكتبة العصريّة، ص78.

2 – الجاحظ، الحيوان، ج1، ص91.

وكان (السّيرافي المُتوفَّى سنة تماني وسِتّينَ وثلاثمائة 368 للهجرة) معروفًا بوضوح العبارةِ، فَلَمَّا أَلَّف كتابَه (الإقناع في النّحو) لَمْ يَرْقَ اِبْنُهُ أن يَكُونَ على ما رَأى مِنَ السُّهولَةِ، فكانَ يَقولُ: "وَضَعَ وَالِدِي النَّحْوَ فِي الزَّبَالَةِ"[3]!

هكذا كان النّحوُ نُشوءًا وارتقاءً في الْبَصرَةِ ثُمّ الْكُوفَةِ، وهُوَ ما يَقضِي به مَنْطِقُ الواقع. فَلَمْ يَكنْ بِجَزيرَةِ العرَبِ ولا بالبِلادِ المفتوحَةِ حاجَةٌ عاجِلة إليهِ: فأمّا الجزيرةُ فَوَطنُ العرب والعرَبِيّةِ.

3 – السيوطي، بغيةُ الوعاة، ج1، ص508.